

عندما يصبح الحكم طرفاً

عندما لاح ان بشير الجميل عاقد العزم على ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية ، ولو أنه لم يكن قد اعلن ذلك صراحة بعد ، اتصلت من قلب بيروت المحاصرة بالمبعوث الرئاسي الاميركي السيد فيليب حبيب ، الذي كان يقضي اكثر ايامه في لبنان خلال تلك الحقبة من الشدة يتابع عن كثب تطورات الاجتياح الاسرائيلي وحصار بيروت من دارة السفير الاميركي في اليرزة حيث كان يقيم مطلا على العاصمة المحترقة ، فطلبت الاجتماع به على عجل . وكان ذلك اول اتصال اجره والمبعوث الاميركي الخاص منذ مباشرته مهمته .

التقيت فيليب حبيب في حضور مساعده موريس دراير والسفير روبرت ديلون ، وبحثث معه على مدى ساعة من الزمن في موضوع انتخابات الرئاسة اللبنانية في كل معطياتها وابعادها وما يمكن ان يترتب على نتائجها من احتمالات وانعكاسات على مسار الازمة ومستقبل لبنان .

كان الحديث صريحا ، وقد تناول مختلف جوانب الموضوع . فاتحته بالقول : « اذا كنتم يا مستر حبيب تعملون على الاتيان برئيس للجمهورية من المتطرفين فانكم بذلك تشقون الطريق لتقسيم لبنان وتفتيته » .

فبادرنى حبيب لتوه بالقول معترضا : « نحن لا نأتي برئيس للجمهورية ، فهو رجل ينتخبه مجلس النواب ، وهذا شأن داخلي لا تندخل فيه » . فقلت له : « ولكنك ها هنا مقيم على مشارف بيروت وتندخل يوميا في الصغيرة والكبيرة ، بما في ذلك مثلا التوسط مع الاسرائيليين للسماح باعادة المياه الى العاصمة بعدما قطعت عنها ، وادخال الادوية والامصال من شرقي المدينة الى مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت الغربية ، وما الى ذلك . ولا أخالكم تجهلون مدى التأثير الذي يمكنكم ممارسته على مجرى الانتخابات ونتائجها » .

فكرر حبيب اعتراضه قائلا : « ان في لبنان دستورا ونظاما ومجلسا نيابيا . « فأجبتة : « وانتم ايضا في لبنان اليوم مع ما يقترن به وجودكم من ظل وثقل . ولا اظنكم الاضاغطين على المعركة الانتخابية وقادرين على التأثير في نتائجها . ولنقل ، حتى لا نتوه في جدل عقيم ، اني طلبت مقابلتك لاقول كلمة ولن اخرج قبل الادلء بها ، وعليك ان تسمع ما عندي من قول . عليكم ان تدركوا حقيقة بديية تتعلق بانتخابات الرئاسة في لبنان حتى ولو انها شأن داخلي لا تقحمون انفسكم فيه كما تقولون . وهذه الحقيقة هي ان لبنان لا يحتمل وجود متطرف في رئاسة الجمهورية » .

وهنا سألني فيليب حبيب : « حسنا ، ومن تعتبر من المتطرفين ؟ » فقلت على الفور : « الشيخ بشير الجميل . فأردف ، دون ان يتوقف لحظة واحدة عند جوابي ، كأنه سلم بصفة التطرف لبشير الجميل : « ومن ايضا ؟ » فقلت لتوى : « الرئيس كميل شمعون » . فاعترضني على الفور ومن غير ان يتوقف لحظة واحدة هنا ايضا : « اتعتبر كميل متطرفا ؟ هذا غير معقول » . فاستتجت من قوله ذاك ومن ذكر الرئيس شمعون باسمه الاول تحببا ، ان مرشح الولايات المتحدة الاميركية للرئاسة اللبنانية في تلك اللحظة لم يكن بشير الجميل ، الذي كان اثرا عند اسرائيل كما كان يبدو ، وانما كميل شمعون .

فاختصرت رسالتي لحبيب قائلا : « لتجاوز الاساء ولنكن واضحين حول جوهر المسألة ، وهو ان سدة الرئاسة في لبنان لا يجوز ان يحتلها متطرف ، لان التطرف في ذلك الموقع من شأنه تعريض وحدة لبنان للتصدع » .

وصباح ١٩٨٢/٧/٢٤ ، توجهت للقاء الرئيس كامل الاسعد في مكتبه في مجلس النواب فوجدته منزعجا من لقائه والرئيس رشيد الصلح الذي سبقني اليه ليلغفه ما كنا قد اتفقنا على ابلاغه ، وهو ان دعوة مجلس النواب لعقد جلسة انتخاب قبل الاتفاق على مرشح اجماع ستكون بمثابة خدمة مجانية للمرشح الاوحد في تلك اللحظة وهو بشير الجميل . لذلك فان اي استعجال في دعوة المجلس لانتخاب رئيس جديد للجمهورية سيحملنا على الدعوة الى مقاطعة الجلسة . وكان الامتعاض باديا على وجهه من حديثي بعد حديث الرئيس الصلح . ومساء ذلك اليوم عينه أعلن بشير الجميل ترشيح نفسه رسميا لمنصب الرئاسة .

وعندما سئلت رأبي في ذلك أجبت في تصريح صحافي : « عندما نقول ان المطلوب رئيس يقود المرحلة في تحرير لبنان من الاحتلال الاسرائيلي واعادة توحيد لبنان واللبنانيين ، وعندما نقول ان المطلوب رئيس يكون فوق الخلافات او النزعات او الانقسامات التي مزقت لبنان ، فاننا بالطبع لا نعتبر الشيخ بشير الجميل مرشحنا . فهو وجه اساسي من وجوه الازمة المدمرة التي نتطلع كلنا الى طي صفحاتها الى الابد مع اطلالة عهد جديد بانتخاب رئيس جديد . وهذه الازمة لا يمكن ان تنتهي باستيلاء طرف من اطرافها على سدة الرئاسة دون تعريض المستقبل اللبناني الى أقدح الاخطار . ان مصير لبنان اليوم في الميزان ووحدته على المحك » .

وتسازعت الاحداث بعد ذلك .

وكان نهار الخميس الواقع في ١٣/٨/١٩٨٢ رهيبا ، قضيناه في الملاهي ، فيما كانت اسرائيل تلهب العاصمة قصفاً من البر والجو والبحر . لعل ذلك اليوم كان هو الاكثر عنفا على الاطلاق في موسم العنف الهمجي الذي كانت تعيشه العاصمة المقاومة منذ بدء الهجوم عليها ثم ضرب طوق الحصار حولها . وما لفتنا اننا في نهاية ذلك النهار الرهيب خرجنا على اذاعة خبرين معا : الاول ، خبر الاتفاق على وقف اطلاق النار بعد اتصالات دولية شملت مكالمة هاتفية من العاهل السعودي الملك فهد مع الرئيس الاميركي رونالد ريغان مطالبا اياه بالتدخل لايقاف المجزرة ، ورسالة خطية من الرئيس الاميركي سلمها السفير الاميركي لرئيس وزراء اسرائيل .

والخبر الثاني كان دعوة الرئيس كامل الاسعد النواب لعقد جلسة صباح الخميس في ١٩/٨/١٩٨٢ لانتخاب رئيس جديد للجمهورية :

لم استطع في قرارة ذاتي لاحقاً الا الربط بين الخبرين . لعل اسرائيل لم توقف المجزرة الا بعد ما حملت الولايات المتحدة الاميركية على تأييد مرشحها بشير الجميل ، فكانت الدعوة الى جلسة الانتخاب مترافقة مع اعلان وقف اطلاق النار .

فانصرفنا منذ تلك اللحظة الى تعبئة الموقف بين النواب لمقاطعة الجلسة المقررة . فاعلن الرئيس الاسعد تأجيل الجلسة حتى الاثنين في ٢٧/٨/١٩٨٢ . وتزعم الرئيس صائب سلام حملة المقاطعة منذ ذلك الحين فدعا الى لقاء اسلامي وطني موسع في منزله لتنظيم الضغط وتصعيد الحملة لتعطيل الجلسة النيابية ، وظل ذلك اللقاء في ما يشبه حال الانعقاد الدائم .

وكان الرد على حملة المقاطعة حملة مضادة من الممارسات التعسفية والتجاوزات الفاجرة لفرض مرشح الامر الواقع ولو بالقوة . وقد عبرت عن بعض ما كان يجري على هذا الصعيد في كتاب مفتوح للرئيس كامل الاسعد جاء فيه :

« انت تعلم يا دولة الرئيس اية مسافة تفصل بيننا وبينك . انها مسافة الحواجز والممارسات . وانت تعلم اية حواجز واية ممارسات » .

« انت تعلم اية مضايقات يتعرض لها المواطن احيانا كثيرة واية ضغوط تمارس على بعض النواب في حلهم وترحالهم .

« فهل يجوز مع كل هذا التحدث عن الديمقراطية والاستحقاقات الدستورية ؟

« هل نلام اذا قلنا ان من غير الجائز ايهام الناس بأن المعركة الرئاسية هي معركة ديمقراطية حرة في الوقت الذي انتفت فيه أبسط شروط الممارسة الديمقراطية تحت وطأة الاحتلال وسطوة العنف والسلاح . . . ؟

« وهل نلام اذا اعتراضنا على استيلاء طرف من اطراف النزاع على سدة الرئاسة الاولى خوفا منا على وحدة هذا البلد وعلى مصير الحرية فيه ؟

« وهل نلام اذا طعننا بصوابية نقل مقر الانتخاب الى عمق المنطقة الواقعة تحت الاحتلال وتحت سطوة مسلحي المرشح الاوحد في آن . . . »

وعشية الانتخاب زرت ونفر من المشاركين في اللقاء الموسع رئيس الحكومة آنذاك الاستاذ شفيق الوزان وبحسنا معه في الاجواء المحيطة بمعركة الرئاسة مستكرين ، حسبها ابلغنا وسائل الاعلام ، الممارسات المستهجنة المعتمدة في محاولة تمرير انتخاب بشير الجميل . فقد قطع الاتصال الهاتفي بين شطري العاصمة ، وبذلك عزلت بيروت الغربية عن الاتصال مع بقية المناطق اللبنانية ، ومنع عدد من النواب من الانتقال من بيروت الشرقية الى

بيروت الغربية . كما سدت في وجههم طريق الشمال والبقاع توخياً لأبقائهم في تصرف المرشح الاجباري الاوحد داخل المنطقة الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي وتحت الهيمنة الحزبية المسلحة

هكذا تم انتخاب بشير الجميل رئيساً . ولكنه اغتيل قبل ايام من موعد تسلمه المسؤولية . وقد هيمنت على البلاد عقب حادث الاغتيال اجواء حملت شقيقه الى سدة الرئاسة بما يشبه الاجماع . وهكذا عندما سبق النواب للاقتراع لبشير الجميل ، لم يعرفوا انهم كانوا ينتخبون امين الجميل . . . او هكذا شاء لهم القدر .

لاول مرة في تاريخ لبنان المستقل انتخب رئيس حزبي ، ذوهوية سياسية فثوية فاقعة . فكان ان اختل ميزان الصيغة اللبنانية الموروثة .

كل الدلائل تشير الى ان ذلك الانتخاب شكل نقطة تحول في مسار الازمة انحرف بالوضع العام الى منزلق الهاوية .

اعلن الرئيس المنتخب انه تخلى عن كل الصفات الحزبية ليكون رئيساً لكل البلاد . وقد استبشر الناس خيراً بذلك . وعلقوا آمالاً على صورة الاعتدال التي استطاع الرئيس الجديد في الماضي ان يوحى بها عن نفسه . ولكن التجارب خيبت الكثير من الظنون . فالرئيس لم يستطع ان يحافظ على موقعه فوق الصراع . فكانت حصيلة الحكم في عهده حافلة بالتناقضات والكوارث .

نقول انها كانت حافلة بالتناقضات في ضوء ما حصل من توقيع على اتفاق مع اسرائيل ثم الرجوع عنه ، واصدار مجموعة ضخمة من المراسيم الاشتراعية ثم الغاؤها ، والادبار عن الخيار العربي السوري ثم العودة اليه والسير في خط الوحدة الوطنية عند قيام حكومة الائتلاف ثم فتح الابواب مشرعة امام عوامل الفرقة والتفتت لتعود فتمزق الساحة لابل كل ساحة .

ونقول انها حافلة بالكوارث في ضوء ما حصل من تطورات امنية جسيمة لم يسبق لها نظير في تاريخ الازمة اللبنانية من حيث حجم التدمير الذي حصل والتهجير الذي رافقه والمآسي الانسانية والاجتماعية التي وقعت معه . والكل يذكر اقتحام بيروت وحرب الضاحية وحرب الجبل وحرب الاقليم وحرب صيدا . ثم ان لبنان لم يسبق ان واجه مثل الكارثة الاقتصادية والاجتماعية التي بدأ يعيشها منذ منتصف العهد مع تفاقم ازمة الغلاء في حدة متناهية ومع تدهور قيمة العملة اللبنانية خارجياً ، والى كل ذلك تضعف معنويات الناس وثقتهم بمستقبلهم ومستقبل وطنهم . وقد تكون هذه الظاهرة الاخيرة هي أخطر وجوه الكارثة في ما كان لها من وقع على مقومات صمود الشعب وعلى مجرى التطورات الاقتصادية في العمق .

ولقد كان لسلوك الحكم مسلك الطرف في النزاع الدائر اثر مفرج ايضاً في تعطيل ادوار قوى خارجية كان يمكن ان تكون ذات اثر ايجابي في مساعدة لبنان على الخروج من محنته والادهي ان ذلك السلوك اقحم بعض تلك القوى في صميم النزاع الداخلي فرفع حدة الصراع الى مستويات جديدة بتعاظم القوة النارية المستخدمة فيه .

واذكر اني كتبت في هذا الصدد (في جريدة « السفير » بتاريخ ١٩٨٤/٢/٥) :

« اعتقد ان ممكن الداء في المرحلة التي نعيش هو ان الدولة لم تستطع الحفاظ على نفسها فوق الصراع الدائر فانزلت إلى مستوى الطرف بين الاطراف . ولقد تجسد هذا الواقع جليا في تكوين اللجنة الامنية التي تشغل فيها الدولة مقعدا بين اربعة ويشغل المقاعد الثلاثة الاخرى اطراف النزاع الحزبية . . . وهذا الواقع عينه هو الذي ورط قوات المارينز الاميركية في النزاع . ذلك لان هذه القوة جاءت بناء على طلب من السلطة الشرعية اللبنانية لتأدية مهمة محددة هي الفصل بين القوات الاسرائيلية التي كانت ترابط في جوار بيروت من جهة ، وسائر مناطق العاصمة والمخيمات الفلسطينية من جهة ثانية . ولقد لقي مقدم القوات الاميركية في ذلك الحين ترحيباً واسعاً في لبنان . والتزمت قوات المارينز جانب السلطة . وكان هذا طبيعياً ومنتظراً . ولكن السلطة اللبنانية لم تستطع البقاء فوق الصراع . واذ انزلت الى مستوى الطرف في النزاع المسلح مع القوى المعارضة وجدت قوات المارينز نفسها من حيث تريد اولاً تريد ، متورطة في ذلك الصراع الى جانب السلطة . « فدفعت قوات المارينز ثمناً غالياً ، بعدما حملت لبنان ثمناً أعلى ، وخرجت .

وفي هذا الصدد كتب جورج بول ، وكيل الخارجية الاميركية ما بين ١٩٦١ و ١٩٦٦ ، في كتاب صدر له في عام ١٩٨٤ ، بعنوان « خطأ وخيانة في لبنان » : « اذ أخذ بلدنا على عاتقه دعم حكم في لبنان لارضاء فيه لفرط ضعفه فانه مني بهزيمة ستكلفنا غالباً على صعيد الهيبة » . (ص ٨٧) . كما قال : ان حكومة الولايات المتحدة الاميركية « وظفت الدم والثروة الاميركيين في دعم حكم لبناني يتمثل فيه عنصر واحد من عناصر الشعب ، فكررت بذلك الخطأ المرتكب في فييتنام » . (ص ٨٨ - ٨٩)

ولعل التزام الحكم صفة الطرف في النزاع كان من شأنه ارباك او تعقيد او تعطيل أي دور ايجابي يمكن ان تقوم به سوريا على صعيد المساعدة في انقاذ لبنان . ولعله هو الذي حدا ايضا بسائر الاشقاء العرب على الاحجام عن القيام بدور انتقادي فاعل في لبنان خلال السنوات الاخيرة ، ذلك لان اي دور عربي فاعل لا بد بطبيعة الحال ان يمر عبر الشرعية ، فاذا كانت الشرعية اللبنانية طرفاً في النزاع الداخلي ، كان ذلك من شأنه حمل اصحاب المساعي الحميدة على العزوف عن التعاطي مع الحكم خشية الانغماس في حمأة النزاع في جانب ضد آخر .

بيروت في ١٢/١٠/١٩٨٦ .